



النسق الاجتماعي وتمثلاته في المقامة المضيرية
لبديع الزمان الهمذاني

The Social sStructure and its Representations in the
Maqamat al- Mudhiriya by Badi' al-Zaman al-Hamadhani

أمينة بوعمامة¹ هيدى محمد بن مالك²

¹المركز الجامعي بمغنية (الجزائر) queenmina92@gmail.com

²المركز الجامعي بمغنية (الجزائر) doclettres-maghnia@hotmail.com

ملخص:

تسلط هاته الدراسة الضوء على النسق الاجتماعي وتمثلاته في مقامة "البديع" المضيرية، باعتبار أن مقامات "البديع" كانت بمثابة المرآة الصافية التي عكست لنا حقيقة ظروف المجتمع الذي عاش في كنفه بديع الزمان الهمذاني؛ إذ مثلت لنا أخلاق المعاصرين وأحوالهم في القرن الرابع للهجرة خير تمثيل. وقد سقت المقامة المضيرية بوصفها نموذجًا حيًا قدم لنا لمحة عن ذلك الواقع الاجتماعي المعيش ذاك.

كلمات مفتاحية: النسق، النسق الاجتماعي، المقامة المضيرية.

Summary:

This study highlights the social system and its representations in the shrine of Badi' al-Mudhairi, viewing the shrines of al-Badi' as a clear mirror reflecting the true conditions of the society in which Badi' al-Zaman al-Hamadhani lived. The Maqamah al-Mudhairi serves as a vivid example that offers insights into the social reality of that era.

Keywords: System, Social structure, Maqamah al-Mudhiriya

مقدمة: ممّا لا شكّ فيه أن طبيعة الحياة الاجتماعية التي يحيا في ظلّها الأديب، لها أثرها الكبير في نفسيّته وإبداعه؛ فالأدب، كما قيل، مرآة عصره وبذلك، يُشكّل المجتمع الخلفيّة الحقيقيّة التي يستقي منها الأديب صوره وموضوعاته؛ فهو الذي

يزوّده ويمدّه بالأسباب التي من أجلها يبدعُ في فنّه من جهة، ويطوّره من جهةٍ أخرى. والأديب، في النهاية، هو ابن بيئته وزمانه، وقد كان هذا حال "بديع الزّمان الهمداني" الذي سعى بكلّ ما أوتي من قوّة لفظٍ وبداهة فكرٍ إلى أن يرصد لنا، من خلال مقاماته، طبيعة التركيبة الاجتماعية في عصره، والتناقضات العجيبة التي حفل بها مجتمعه. الأمر الذي جعله يركّز على بناء مقاماته بالدرجة الأولى إلى النّسق الاجتماعيّ، وذلك بُغية رصد مختلف الظواهر الاجتماعية السّائدة آنذاك؛ فما هو مفهوم النّسق الاجتماعيّ؟ وكيف تجلّى في المقامة المضيرية للهمدانيّ؟

2. مفهوم النّسق:

جاء المفهوم اللغويّ لكلمة "نسق" على معانٍ متقاربةٍ في عدّة معاجم لغوية؛ ففي معجم لسان العرب ورد أنّ "النّسق من كلّ شيء: ما كان على طريقة نظامٍ واحدٍ عامٍ في الأشياء، ونسق الشيء ينسقه نسقاً ونسقه نظمه على السّواء، يُقال ناسق بين الأمرين أي تابع بينهما، والتّنسيق: التّنظيم"¹. ووردت الكلمة، أيضاً، في معجم الوسيط بمعنى "نسق الشيء نسقاً: نظمه، ونسق كتبه والكلام: عطفَ بعضاً على بعضٍ، وناسق بين الأمرين: تابع بينهما ولأَم، وانتسقت الأشياء: انتظم بعضها إلى بعضٍ"². وفي معجم متن اللّغة، حملت الكلمة معنى "نسق نسقاً الشيء: عطفَ بعضه على بعض: وبين الشّيتين: ناسق بينهما، وتناسقت الأشياء وانتسقت وتنسقت بعضها إلى بعض: تتابعت، والنّسق من كلّ شيء: ما كان على طريقة واحدةٍ ونظامٍ واحدٍ عامٍ"³. وعليه، فقد أجمعت المعاجم اللّغوية السّابقة على معنى واحدٍ للفظة "نسق"، ألا وهو انتظام الأشياء وتتابعها وتعاطفها.

أما في الجانب الاصطلاحيّ، فقد حاول النّقاد والباحثون تقديم توصيفٍ إجرائيّ للمصطلح، ذلك أنّه يندرجُ ضمن مجال النّقد الثقافيّ؛ فنجد عبد الله الغدامي قد أشار إليه في كتابه "النّقد الثقافيّ" بقوله: "يجري استخدام كلمة النّسق كثيراً في الخطاب العامّ والخاصّ، وتشيعُ في الكتابات إلى درجة قد تُشوّه دلالتها، وتبدأ بسيطةً كأن تعني ما كان على نظامٍ واحدٍ كما في تعريف الوسيط، وقد تأتي مرادفةً لمعنى البنية Structure أو معنى النظام System حسب مصطلح دي سوسير"⁴؛ فالغدامي قد حصرَ، بقوله هذا، مفهوم النّسق في التعريف اللّغويّ لكلمة "نسق" الذي ذهب إليه صاحب معجم الوسيط، من حيث إنّ النّسق هو انتظام الأشياء بعضها إلى بعضٍ، كما حصره في معنى البنية، ومعنى النظام عند دي سوسير.

ويرى الغدامي أن النسق "يتحدد عبر وظيفته، وليس عبر وجوده المجرد، والوظيفة النسقية لا تحدث إلا في وضع مُحدّد ومُقَيّد، وهذا يكون حينما يتعارض نسقان أو نظامان من أنظمة الخطاب، أحدهما ظاهر والآخر مضمّر، ويكون المضمّر ناقضاً وناسخاً للظاهر، ويكون ذلك في نصّ واحد، أو ما هو في حكم النصّ الواحد"⁵؛ إذ لا يستطيع النسق تأدية وظيفته بمعزل عن أنظمة الخطاب المختلفة التي يقوم عليها النصّ الأدبيّ الواحد، بل ينبغي أن يتواجد ضمنها وآلا تعذر علينا تحديده.

وتتضمّن النصوص الأدبية على اختلافها مجموعةً من الأنساق المضمرة، لا يتمّ الكشف عنها وعن دلالاتها إلا عبر سياقات النصّ التاريخية والثقافية والاجتماعية، ذلك أن من خصائص النسق "قدرته على الانفلات والبناء/ إعادة البناء والتمايز والتحويل والتوليد، أي أنه بهذا المفهوم نسقٌ عابرٌ للمرجعيات المتعدّدة للخطاب"⁶. ومن ثمّ، يستحيل على القارئ لمختلف النصوص الأدبية الوقوف على مجموعة الأنساق المضمرة داخلها، إلا بالاطلاع على سياقات النصّ المختلفة، كون النسق يختلف باختلاف المرجعيات المتعدّدة للخطاب داخل النصّ. هذا فيما يخصّ مفهوم النسق ودوره في بناء النصّ وتشكيله على العموم.

3. مفهوم النسق الاجتماعي:

أما فيما يخصّ النسق الاجتماعي، فيُقصّد به: "نظامٌ ينطوي على أفراد فاعلين تتحدّد علاقاتهم بمواقفهم وأدوارهم التي تنبع من الرّموز المشتركة والمقرّرة ثقافياً في إطار هذا النسق"⁷؛ أي إنّ النسق الاجتماعي هو بمثابة نظامٍ يضمّ مجموعة من الأشخاص تربطهم مجموعة من الروابط المشتركة، التي يتمّ على إثرها تحديد علاقاتهم مع بعضهم البعض، كما أنّه "يرتكز على معايير وقيم تُشكّل مع الفاعلين الآخرين جزءاً من بيئة الفاعلين"⁸. وعليه، فالنسق، بهذا المفهوم، هو عبارة عن نظامٍ يسري داخل المجتمع، فيؤثّر في أفرادهِ ويقوم بتوجيههم، ويتمكّن، في النهاية، من السيطرة عليهم.

إنّ النسق الاجتماعي، من خلال المفهوم السابق، هو أقرب ما يكون إلى مفهوم البناء الاجتماعي المتعارف عليه في علم الاجتماع؛ فالبناء الاجتماعي يُعرّف بأنّه "مجموعة من العلاقات الاجتماعية المتباينة التي تتكامل وتتسق من خلال الأدوار الاجتماعية، فتمّة مجموعة أجزاء مرتّبة متّسقة تدخل في تشكيل الكلّ الاجتماعي، وتتحد بالأشخاص والزمر والجماعات وما ينتج عنها من علاقاتٍ وفقاً لأدوارها الاجتماعية التي يرسمها لها الكلّ وهو

البناء الاجتماعي⁹. إذن، فكلا المصطلحين "النسق" و"البناء الاجتماعي" يصبّ مفهوما في معنى واحد، ألا وهو مجموع العلاقات الاجتماعية التي تربط بين أشخاص فاعلين، في بيئة واحدة ضمن نظام اجتماعي واحد.

لقد انطوت مقامات "الهمداني"، في جُلّها، على مجموعة من الأنساق الاجتماعية ذات الدلالات المضمرة والخفية. وقد تعدّدت هذه الأنساق وتنوّعت وفق ما يخفيه الخطاب السردّي للمقامات، ووفق ما تخفيه جماليّتها اللغوية، ذلك أن النّسق "ذو طبيعة سردية، يتحرّك في حُبكة متقنة، ولذا فهو خفيّ ومُضمّر وقادرٌ على الاختفاء دائماً، ويستخدم أفعلةً كثيرةً أهمّها قناع الجماليّة اللغويّة، وعبر البلاغة وجماليّتها تمرّ الأنساق أمانة مطمئنة"¹⁰. وهذا ما نلمسه في مقامات "الهمداني" التي تختبئ أنساقها، دائماً، خلف سحر بياها، وبلاغة معانيها، الأمر الذي ساعدها على الاختفاء والمُضمور.

ليس للهمداني يدٌ في تواتر الأنساق الاجتماعيّة بمقاماته، بل انساق إليها انسياقاً تلقائياً، لتتكوّن وتُشكّل نسقاً مُضمّراً منتظماً داخل نصوصها، مثلما أشار إليه الغدامي: "والنّسق هنا من حيث هو دلالة مضمرة فإن هذه الدلالة ليست مصنوعة من مؤلّف، ولكنها مكتوبة ومنغرس في الخطاب، مؤلّفها الثقافة، ومستهلكوها جماهير اللّغة من كُتّاب وقُراء"¹¹؛ فالدلالة التي يحملها النّسق في النصّ، إذن، ليست من صنع المؤلّف، بل هي نابعة من صُلب الخطاب وثقافته، وموجّهة نحو المتلقّي كاتباً كان أو قارئاً.

4. النّسق الاجتماعي ودلالاته المضمرة في المقامة المضيريّة:

تُعَدُّ مقامة بديع الزّمان الهمداني المضيريّة من أطول المقامات التي كتبها البديع على الإطلاق؛ فقد حاول، من خلالها، أن يبيّن شيئاً من طبيعة الحياة الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع البغداديّ أيام عصره. والمُلاحظ، في هذه المقامة، أنّها قد قامت كلّها على الوصف، الذي جاء على لسان ذلك التّاجر الثّرثار.

إنّ للنّسق الاجتماعي في المقامة المضيريّة للهمداني، دلالات مضمرة وخفية تتعدّد صورها، لتتنوّع وفق ما يخفيه كلّ من الخطاب السردّي والقيم الجماليّة للمقامة، والتي يحدّدها السّياق الثقافيّ للمجتمع العباسي حسب طبقاته المختلفة وفئاته، يقول عبد الله الغدامي في كتابه "النّقد الثقافي": "لابدّ أن يكون النصّ جميلاً ويُستهلك بوصفه جميلاً، بوصف الجمالية هي أخطر حيل الثقافة لتمرير أنساقها وإدامتها"¹²، وعليه؛ فنصّ المقامة المضيريّة ليس مجرد سرد لأحداث ووقائع، بأسلوب أدبي مُهر، وجمالية ألفاظ برّاقة، تأسر

القلوب والأذهان، بل هو لوحة فنية متكاملة المعالم عن ثقافة المجتمع العباسي، في جل حالاته من بؤس وشقاء، وتعاسة وسعادة، وفقير وغنى، وضروب للعيش، تشمل أدوات حياتهم ووسائل عيشهم، وطرار بيوتهم وأثاثهم ومأكليهم ومشربهم، إذ مثلت شريطاً وثائقياً ثقافياً عن حياة العباسيين بأدنى تفاصيلها آنذاك، انطلاقاً من تلك القصة الطريفة التي جمعت أبا الفتح الإسكندري بالتاجر في هذه المقامة.

تبدأ حكاية المقامة المضيرية على لسان عيسى بن هشام (راوي مقامات الهمداني) أنه كان رفقة أبي الفتح الإسكندري (بطل مقامات الهمداني) بالبصرة؛ فدعاهم أحد التجار إلى تناول المضيرة*، فراح عيسى بن هشام يصفها مبدئياً تشوقه إلى أكلها: "...فَقَدِمْتُ إِلَيْنَا مَضِيرَةً، تُثْنِي عَلَى الْحَضَارَةِ، وَتَتَرَجَّحُ فِي الْغَضَارَةِ، وَتُؤْذِنُ بِالسَّلَامَةِ، وَتَشْهَدُ لِمُعَاوِنَةِ رَحِمَهُ اللَّهُ بِالْإِمَامَةِ، فِي قِصْعَةٍ يَزِلُّ عَنْهَا الطَّرْفُ، وَيَمُوجُ فِيهَا الطَّرْفُ..."¹³؛ فإذا بأبي الفتح الإسكندري يشرع في لعنها ولعن صاحبها، ويبين مقتله الشديد لها؛ فاعتقد عيسى ومن معه أن الإسكندري كان يمزح فقط؛ فإذا به يكشف عن جدّه؛ فرفع طبق المضيرة، ورفعت معها قلوب عيسى بن هشام ومن معه: "...وَلَمَّا نَظَرْنَا يَمْرُحُ فَإِذَا الْأَمْرُ بِالضِدِّ، وَإِذَا الْمُرَاحُ عَيْنُ الْجِدِّ، وَتَنَحَّى عَنِ الْخَوَانِ، وَتَرَكَ مُسَاعِدَةَ الْإِخْوَانِ، وَرَفَعْنَاهَا فَارْتَفَعَتْ مَعَهَا الْقُلُوبُ، وَسَافَرَتْ خَلْفَهَا الْعُيُونُ، وَتَحَلَّبَتْ لَهَا الْأَفْوَاهُ، وَتَلَمَّظَتْ لَهَا الشِّفَاهُ، وَاتَّقَدَتْ لَهَا الْأَكْبَادُ، وَمَضَى فِي إِثْرِهَا الْفُؤَادُ..."¹⁴؛ فرضخوا للأمر الواقع، وسألوا الإسكندري عن السبب الذي نقره منها، فراح يسرد قصته معها في بيوت أحد تجار بغداد، وسأحاول الإحاطة بتفاصيلها كاملة من خلال دراسة القيم المختلفة التي تضمنها النسق الاجتماعي فيها.

ومن الثنائيات التي انطوى عليها النسق الاجتماعي في المقامة المضيرية للهمداني أذكر:

أ- الفقر/الغنى: تجمع هاته الثنائية الضدية بين كل من راوي مقامات "الهمداني" أبي الفتح الإسكندري، الرجل المُعْدَم الفقير، الذي كان يسعى بكل ما أوتي من حيلة، لكسب قوت يومه، عن طريق التكدية والاحتيال، وبين ذاك التاجر الغني المترف، الذي كان يحيا حياة البذخ والثراء الفاحش، بكل معاييرها انطلاقاً من بيته الذي انبرى يتفنن في وصفه، وجودة صنعه، ومكانه الاستراتيجي، حين بلغ بصحبة أبي الفتح الحي الذي يضم داره؛ فشرع في مدح حيّه وكيف أنه من أشرف وأرقى المحال، لينتقل بعد ذلك إلى وصف داره؛ التي جعلها بمثابة الجوهرة الفريدة وسط جواهر القلادة مُقارنَةً بباقي البيوتات في حيّه: "... يَا مَوْلَايَ تَرَى هَذِهِ

المَحَلَّة؟ هِيَ أَشْرَفُ مَحَالٍ بَغْدَادَ، يَتَنَافَسُ الْأَخْيَارُ فِي نُزُولِهَا، وَيَتَغَايَرُ الْكِبَارُ فِي حُلُولِهَا، ثُمَّ لَا يَسْكُنُهَا غَيْرُ التُّجَّارِ، وَإِنَّمَا الْمَرْءُ بِالْجَارِ وَدَارِي فِي السَّطَةِ مِنْ قِلَادَتِهَا، وَالنُّقْطَةُ مِنْ دَائِرَتِهَا...¹⁵.

ومن الحديث عن داره، انتقل إلى الحديث عن طاقة داره، يقصد بها النافذة، ثم باب داره قائلا: "... هَذِهِ دَارِي، كَمْ تُقَدِّرُ يَا مُؤَلَّيْ أَنْفَقْتُ عَلَى هَذِهِ الطَّاقَةِ؟ أَنْفَقْتُ وَاللَّهِ عَلَيَّاهَا فَوْقَ الطَّاقَةِ، وَوَرَاءَ الْفَاقَةِ، كَيْفَ تَرَى صَنْعَتَهَا وَشَكْلَهَا؟ أَرَأَيْتَ بِاللَّهِ مِثْلَهَا؟ أَنْظُرْ إِلَى دَقَائِقِ الصَّنْعَةِ فِيهَا، وَتَأَمَّلْ حُسْنَ تَعْرِيجِهَا، فَكَأَنَّمَا خُطَّ بِالْإِبْرَاقِ وَأَنْظُرْ إِلَى حِدْقِ النَّجَّارِ فِي صَنْعَةِ هَذَا الْبَابِ، اتَّخَذَهُ مِنْ كَمْ؟ قُلْ: وَمِنْ أَيْنَ أَعْلَمُ. هُوَ سَاحٌ مِنْ قِطْعَةٍ وَاحِدَةٍ لَا مَارُوضٌ وَلَا عَفْنٌ، إِذَا حُرِّكَ أَنْ، وَإِذَا نُفِرَ طَنٌ...¹⁶، فَقَدْ تَحَوَّلَ التَّاجِرُ مِنْ وَصْفِ الطَّاقَةِ إِلَى وَصْفِ الْبَابِ بِتَفَاصِيلٍ دَقِيقَةٍ وَمُمَلَّةٍ، بِدَايَةِ مِنْ مَوَادِّ صَنْعِهَا وَنَهَايَةِ بِمَهَارَةِ النَّجَّارِ الَّذِي صَنَعَهَا مِنْ خَشَبٍ خَاصٍّ، وَهُوَ خَشَبُ السَّاجِ الَّذِي يُسْتَخْلَصُ مِنْ شَجَرٍ عَظِيمٍ جَدًّا لَا يَنْبُتُ إِلَّا فِي بِلَادِ الْهِنْدِ، وَمِنْ الْبَابِ يَتَحَوَّلُ إِلَى الْحَدِيثِ عَنِ الْحَلْقَةِ الَّتِي عُلقَتْ عَلَيْهِ فيقول: "وَهَذِهِ الْحَلْقَةُ تَرَاهَا اشْتَرَيْتُهَا فِي سُوقِ الطَّرَائِفِ مِنْ عِمْرَانَ الطَّرَائِفِيِّ بِثَلَاثَةِ دَنَانِيرٍ مُعَرَّيَّةٍ، وَكَمْ فِيهَا يَا سَيِّدِي مِنَ الشَّيْبَةِ؟ فِيهَا سِتَّةُ أَرْطَالٍ، وَهِيَ تَدَوِّرُ بِلَوْلِبٍ فِي الْبَابِ، بِاللَّهِ دَوَّرَهَا، ثُمَّ أَنْقَرَهَا وَابْصُرْهَا، وَبِحَيَاتِي عَلَيْكَ لَا اشْتَرَيْتَ الْحَلْقَ إِلَّا مِنْهُ؛ فَلَيْسَ يَبِيعُ إِلَّا الْأَعْلَاقَ"¹⁷؛ فَالتَّاجِرُ مُعْجَبٌ أَشَدَّ بِالْإِعْجَابِ بِتِلْكَ الْحَلْقَةِ الَّتِي جَعَلَهَا فِي وَاجِهَةِ الْبَابِ؛ فَرَّاحٌ يَصِفُهَا، ذَاكِرًا وَزَنَهَا، وَاسْمُ بَانِعِهَا، نَاصِحًا الْإِسْكَندَرِيَّ بِأَنْ لَا يَشْتَرِيَ حَلْقًا إِلَّا مِنْهُ.

لم ينتهِ التَّاجِرُ مِنْ سَرْدِ تَفَاصِيلِ حِكَايَاتِهِ الْمَمْلَّةِ الطَّوِيلَةِ عَنْ دَارِهِ وَأَثَانِهَا؛ فَرَّاحٌ يَحْدِثُهُ عَنْ كُلِّ مَا كَانَ يَقَعُ عَلَيْهِ بِصَرِهِ فِي الْمَنْزِلِ مِنْ حَصِيرٍ وَأَثَانٍ وَخَوَانٍ: "... اشْتَرَيْتُ هَذَا الْحَصِيرَ فِي الْمُنَادَاتِ، وَقَدْ أُخْرِجَ مِنْ دُورِ آلِ الْفُرَاتِ، وَقَتَ الْمُصَادَرَاتِ، وَزَمَنَ الْغَارَاتِ وَكُنْتُ أَطْلُبُ مِثْلَهُ مُنْذُ الزَّمَنِ الْأَطْوَلِ فَلَا أَجِدُ، وَالْدَّهْرُ حُبْلَى لَيْسَ يُدْرَى مَا يَلِدُ، ثُمَّ اتَّفَقَ أَنِّي حَضَرْتُ بَابَ الطَّاقِ، وَهَذَا يُعْرَضُ بِالْأَسْوَاقِ، فَوَزَنْتُ فِيهِ كَذَا وَكَذَا دِينَارًا، تَأَمَّلْ بِاللَّهِ دِقَّتَهُ وَلِينَهُ، وَصَنْعَتَهُ وَلَوْنَهُ، فَهُوَ عَظِيمُ الْقَدْرِ، لَا يَقَعُ مِثْلُهُ إِلَّا فِي النَّدْرِ..."¹⁸.

وَيَتَحَوَّلُ التَّاجِرُ تَارَةً أُخْرَى إِلَى وَصْفِ الْإِبْرِيقِ الَّذِي جَلِبَهُ الْغُلَامُ لَضَيْفِهِ مِنْ أَجْلِ غَسْلِ يَدَيْهِ، حَيْثُ قَلْبُهُ وَتَمَعْنُ فِيهِ جَيِّدًا وَنَقَرَهُ قَائِلًا: "انْظُرْ إِلَى هَذَا الشَّيْبَةِ كَأَنَّهُ جِدْوَةُ اللَّهَبِ، أَوْ قِطْعَةٌ مِنَ الدَّهَبِ، شَبَهُ الشَّامِ، وَصَنْعَةُ الْعِرَاقِ"¹⁹. وَمَا إِنْ لَمَحَ الْمَاءُ يَنْسَابُ مِنْهُ انْسِيَابًا حَتَّى انْبَرَى يَنْعَتُهُ قَائِلًا: "... بِاللَّهِ تَرَى هَذَا الْمَاءَ مَا أَصْفَاهُ، أَزْرَقُ كَعَيْنِ السَّيْتُورِ، وَصَافٍ كَقَضِيبِ الْبُلُورِ، اسْتَقِي مِنَ الْفُرَاتِ، وَاسْتَعْمِلْ بَعْدَ الْبَيَاتِ، فَجَاءَ كِلْسَانِ الشَّمْعَةِ، فِي صَفَاءِ

الدَّمْعَةُ...²⁰؛ فالماء الَّذِي حمَلَهُ الإبريق، ماءٌ صافٍ كالبلّور جُلِبَ من نهر الفُرات، وهو ماءٌ صافٍ كصفاء الدَّمْعَةِ.

ثمَّ يقع نظر التَّاجر مُجَدِّداً على المندِيل الَّذِي راح يصفه بدوره قائلاً: " هذا المندِيلُ سَلَّني عَنْ قِصَّتِهِ، فَهُوَ نَسَجُ جُرْجَانٍ، وَعَمَلُ أَرْجَانٍ، وَقَعَ إِلَيَّ فَاشْتَرَيْتُهُ، فَاتَّخَذْتُ امْرَأَتِي بَعْضَهُ سَرَاوِيلاً، وَاتَّخَذْتُ بَعْضَهُ مِندِيلاً..."²¹.

ومن المندِيل يتحوَّل مرَّةً أُخرى إلى وصفه لَخِوان الطَّعام الَّذِي أتى به الغُلام: "... تَأَمَّلْ باللهِ هَذَا الخِوانَ، وَانْظُرْ إِلَى عَرَضِ مَتْنِهِ، وَخِفَّةِ وَزْنِهِ، وَصَلَابَةِ عُوْدِهِ، وَحُسْنِ شَكْلِهِ..."²²، لقد أراد "الهمذاني" أن يقدِّم لنا شخصية التَّاجر الانتهازيِّ في مقامته المَصْخِرَةِ، كنموذج حيٍّ لطبقة التَّجار في عصره، الَّتِي جعلت من الانتهاز والاحتِيال والابتزاز أسلوبها في الحياة؛ هذه الطَّبقة الَّتِي نالت من الغنى والسُّلطة نصيبها في العصر العبَّاسي، وسعت جاهدةً لتحقيق الرِّيح والثَّراء على حساب أصحاب الطَّبقة الكادحة، دون أيِّ رحمةٍ وشفقةٍ، وقد نالوا، بذلك، مناصبَ ومراتبَ رفيعةً في الدَّولة، وعمَدَ الخلفاء والحُكَّام إلى تَقريبهم، بل ومال الشُّعراء والكَتَّاب إلى مدحهم، مما أدَّى إلى توسيع الهوَّة وزيادة عُقمها بين طبقات المجتمع: "...لم تكن فئة التَّجار بعيدةً عن السَّادة وخاصَّةً إذا ما كثرت أموال بعض أفرادها، ولا شكَّ في أنَّها أفادت من اتِّساع الإمبراطورية العبَّاسية، وإذا التَّجار يضربون في عرض بلادهم الواسعة ليحملوا الخيرات من الشَّرق والغرب، ويعرضوها بضائعٍ وسلعاً في أسواق العراق، وغيره من الأقاليم العبَّاسية، فيريح هؤلاء الأرباح العجيبة، ويمتلكون الثَّروات الطَّائلة، وإذا هم يتاجرون بكل ما يستطيعون الاتِّجار به حتَّى الإنسان، وتتحاذى قصورهم مع قصور الخلفاء والأمراء، ويصلون بغناهم إلى القصور الحاكمة ويبلغون ما يشاؤون فيها، من الرِّفعة والجاه، أيَّاً كانت أصولهم وأنسابهم، ويتحوَّلون إلى مواضعٍ مُغريةٍ للشُّعراء والكَتَّاب العبَّاسيين، ويزيدون في تناقضات المجتمع العبَّاسيِّ وصراعاته وأسباب ضعفه وتمزُّقه وتلاشيهِ"²³.

لخصَّ لنا كاظم حطييط، من خلال هذا القول بشكلٍ مفصَّلٍ ودقيقٍ، حال التَّجار وصفاتهم في هذا العصر، الَّذين استفادوا من اتِّساع رقعة الدَّولة العبَّاسية؛ فاستغلَّوا ذلك في سبيل عرض سلعهم وبضائعهم في مختلف أنحاء البلاد وخارجها؛ فازداد غناهم وتَجَبَّرهم، وراحوا يتاجرون بكلِّ ما تقَعُ عليه أعينهم بل كانوا يتاجرون حتَّى بالبشر؛ فتجرَّدوا من ثوب

الأخلاق والإنسانية في سبيل تحقيق الرِّيح والثَّراء الفاحش، ونيل أعلى المراتب وأرقاها في أركان الدولة، وبلغوا بثرائهم وبذخهم مراتب الخلفاء والأمراء ونافسوهم فيها، ومدَّح الشعراء والكتَّاب لهم والثَّناء عليهم. الأمرُ الَّذي زاد من تأجيج نار الحقد والسُّخط على تلك الطَّبقة بين صفوف الشَّعب وعامَّتهم.

ويشير شوقي ضيف هو الآخر في كتابه "تاريخ الأدب العربي" إلى حال التُّجَّار هذا العصر وإلى معاملاتهم مع الملوك والوزراء الَّتِي كانوا يجنون من وراءها أرباحاً طائلةً ووفرةً: "وكان يدخل في هذه الطبقة الأرستقراطية ورثةُ الإقطاع والضَّياع الواسعة وكبار التُّجَّار الَّذي كانوا يتاجرون برؤوس أموال ضخمة في مطالب تلك الطَّبقة من أدوات التَّرف والزَّينة، وكان في مقدِّمتهم النُّخاسون الَّذين كانوا يجلبون الرِّقيق والجواري من أطراف الأرض، وتُجَّار الطُّرف النِّفيسة الَّتِي كانت تجلبها السِّفن من جميع أنحاء العالم وبالمثل تجَّار الجواهر ... وكانت كلُّ طائفة من التُّجَّار تقيم في سوقٍ واحدٍ فيقالُ سوق النُّخاسين وسوق الوراقين، وكانت أقرهم إلى التَّرف، والبزازون (تجَّار الأقمشة) والعطارون".²⁴

لقد أدرج شوقي ضيف، من خلال قوله السَّابق، صنف كبار التُّجَّار ضمن الطَّبقة الأرستقراطية هذا العصر؛ فقد اعتمد الأمراء والحكام على أولئك التجار اعتماداً كُلياً في جلب مستلزماتهم ومتطلباتهم، من ألبسةٍ وأكسيةٍ وعطورٍ وأدوات زينةٍ ومجوهرات نفيسة؛ فازدادوا ثراءً ما بعده ثراء.

كما عرض لنا، بالمقابل، لوحةً فنيَّةً جميلةً عن طبيعة الأثاث والأواني وأدوات الزَّينة الَّتِي مثَّلت طابع الحياة في هذا العصر، بدءاً من المحالِّ الضخمة التي لم يكن يحلُّ بها أو يقطنها غير الأثرياء وكبار التُّجَّار، حيث كانت تضاهي في ضخامتها وحُسنها قصور الخلفاء والأمراء، كما أشرت إلى ذلك سابقاً؛ فقد بلغت الحضارة، في هذا العصر، أوجها من حيث النظام العمراني، القائم على التفنُّن في بناء الدور والقصور، والإبداع في زخرفتها وتأنقها من طلاء ونقوش وستائر وبساطات وسجَّادات. ويصف شوقي ضيف بعضاً من مظاهر الحضارة والعمران الَّتِي عاش في كنفها الخلفاء والأمراء وحواشيهم آنذاك قائلاً: "رأينا تفنُّن الخلفاء والوزراء في بناء القصور، حتى ليشبه بعضها مدناً صغرى، تمتلئ بالأبنية والأفنية والأساطين والقباب والبساتين والجداول والبرك والتَّافورات، مع التَّأنق في أبوابها ونوافذها وشرفاتها وزخرفة حيطانها بالنُّقوش والصُّور وتعليق السِّتائر الحريريَّة عليها، مع ما يموج فيها من البسط والسِّجاجيد والطَّنَافس والمناضد والتَّحف المرصَّعة بالجواهر".²⁵

وعليه فقد تفنَّن الخلفاء ومن جاورهم في بناء الدور والقصور، وحرصوا على تزيينها من الخارج والدَّاخل، فقد اهتمَّوا من الخارج بالتأنق في صناعة الأبواب والنوافذ والشِّرفات، وتزيين الحيطان، بمختلف الزَّخارف والأشكال الهندسية البديعة، أمَّا من الدَّاخل فقد اهتمَّوا بجمال وأناقة فرشهم وبساطاتهم وسجَّاداتهم، وكذا السِّتائر المصنوعة من الحرير، بالإضافة إلى التَّحف وأدوات الزَّينة التي كانت ترصَّع بالجواهر، وهذا إن دلَّ على شيء فإنه يدلُّ على مقدار التَّرف والبذخ اللذان عاش في ظلَّهما أغنياء الدَّولة العبَّاسية، وكان هذا كلُّه جزاء التَّأثير الكبير بالثقافة الفارسية الَّتِي كان لها الفضل في إدخال مثل هذه العادات والطِّبائع إلى المجتمع العربي في العصر العبَّاسي.

ويخبرنا أحمد أمين عن بعض مظاهر حياة المترفين في تلك الحقبة قائلاً: "وكان من مظاهر نعمة الأغنياء السَّكن في السَّراديب صيفا، والتَّلج لشرب الماء البارد يستحضره حتى من الأماكن البعيدة، كما استعملوا في البيوت المراوح المبلولة بالماء من الخيش، يحركها بعض الخدم... واتخذوا في بيوتهم الأماكن الواسعة توضع فيها الأرائك يجلسون عليها ليلاً لسماع الغناء والشَّراب، والحديث اللَّذيد، وبعضهم يُعنى بالأزهار يشتريها بالمال الوفير... وقد عُني الأغنياء بالبرك، وبالأشجار في قصورهم، وبالصناعة الخشبية كالمشربيات وتزيين الأبواب والحمَّامات، كما عنوا بإنشاء الحمَّامات للشَّعب، أخذًا من العادات الفارسية، وعرفوا "الإسفلت" وأخذوه من مكان بين الكوفة والبصرة، وقالوا إنَّهم مهروا في صناعته فكانوا يجعلونه كأنَّه مرمر أسود، ويُغطَّون به بعض الحيطان..."²⁶.

وعليه فقد تأنَّق أغنياء هذا العصر في نمط معيشتهم أيَّما تأنَّق بل وبالغوا في ذلك. وكان هذا الأمر حكراً على الطَّبقة المُترفة الَّتِي عاشت حياة التَّراء والبذخ والتَّرف بأقصى معاييرها. وهذا ما تكشفته لنا المقامة المضيرَّة الَّتِي وصف لنا البديع فيها على لسان التَّاجر، فخامة منزله، ابتداءً من موقعه الاستراتيجيِّ، الَّذِي كان بمثابة القبلية للأغنياء، بل ومثَّل تنافس الأخيار لنزوله، ومرورا بتفردِه عن باقي الدَّور، وجودة خشب نوافذه، ونُدرة خشب بابه، وجمال حِلَقه المعلقة عليه، وانتهاءً بمتاعه وأثاثه من غلامٍ وأواني منزلية فخمة، وماءٍ عذبٍ، ومناديل مطرزةٍ، فالبديع أراد بهذا الوصف الطَّويل الدَّقِيق أن يقدِّم لنا لمحة أو صورة عن طبيعة الحياة الاقتصادية والعمرانية الَّتِي كان يحياها الأغنياء وعلى رأسهم التَّجار، أمثال التَّاجر بطل مقامته المضيرَّة.

يُعلق سيف محمد سعيد المحروقي على مضمون المقامة المضيرية قائلاً: "لقد عمد البديع في هذه المقامة إلى رسم ثنائية الغنى والفقر، مصوراً الطبقية التي يعيشها مجتمعه، في إشارة واضحة منه، لما أصاب المجتمع من خلل اقتصادي، في توزيع الثروات، فنعم بها أقوام، فكان منهم من أصابهم طفرة الغنى، فما عادوا يشعرون بالآخرين، ولا يراعون أحاسيسهم ومشاعرهم، كالتاجر محدث النعمة، الذي طفق يصف ما به من نعيم وثناء، وهو مبتهج بما لديه، حتى إنه لا يجد في نفسه حرجاً من وصف زوجته أمام رجل غريب، وكأنها من ضمن ممتلكاته التي يفاخر بها"²⁷.

ب- السذاجة/الاحتيال: مثل هذه الثنائية كلٌّ من التاجر المترف وصاحب الدار التي سلمها التاجر منه عن طريق الاحتيال والغش والخديعة، إذ نجده يسرد على مسامع أبي الفتح الإسكندري تفاصيل قصة احتياله على رجل، استغل غفلته وسذاجته، ليوقه في شرك حيلته، من أجل الحصول على تلك الدار: "ثُمَّ قَرَعَ الْبَابَ وَدَخَلْنَا الدَّهْلِيَّزَ، وَقَالَ: عَمَرَكَ اللَّهُ يَا دَارُ وَلَا خَرَبَكَ يَا جِدَارُ، فَمَا أَمَّنَ حِيْطَانُكَ، وَأَوْثَقَ بُيُوتُكَ، وَأَقْوَى أَسَاسُكَ، تَأْمَلُ بِاللَّهِ مَعَارِجَهَا، وَتَبَيَّنَ دَوَاجِلَهَا وَخَوَارِجَهَا، وَسَلَّنِي: كَيْفَ حَصَلَتْهَا؟ وَكَمْ مِنْ حِيلَةٍ اخْتَلَتْهَا، حَتَّى عَقَدْتَهَا؟"²⁸، وجعل يحدثه عن صاحب الدار - رحمه الله - الذي كان رجلاً غنياً، مُعاقراً للخمرة ولعب القمار، فخشى التاجر أن يبيع الرجل تلك الدار إذا سئم منها، وتضيع الفرصة من يده، فاحتال عليه ببضاعة كاسدة، وأمهله الرجل مدةً طويلةً لدفع ثمنها، مقابل وثيقة تثبت دينه: "... فَعَمِدْتُ إِلَى أَثْوَابٍ لَا تَبِضُّ تِجَارَتُهَا فَحَمَلْتُهَا إِلَيْهِ، وَعَرَضْتُهَا عَلَيْهِ، وَسَأَوْتُهُ عَلَى أَنْ يَشْتَرِيَهَا نَسِيئَةً، وَالْمُدِيرُ يَحْسِبُ النَّسِيئَةَ عَطِيَّةً، وَالْمُتَخَلِّفُ يَعْتَدُّهَا هَدِيَّةً، وَسَأَلْتُهُ وَثِيقَةً بِأَصْلِ الْمَالِ، فَفَعَلَ وَعَقَدَهَا لِي، ثُمَّ تَغَافَلْتُ عَنْ اقْتِضَائِهِ، حَتَّى كَادَتْ حَاشِيَةُ حَالِهِ تَرِقُّ، فَأَتَيْتُهُ فَأَفْتَضَيْتُهُ، وَاسْتَمَهَلَنِي فَأَنْظَرْتُهُ، وَالتَّمَسَ غَيْرَهَا مِنَ الثِّيَابِ فَأَحْضَرْتُهُ، وَسَأَلْتُهُ أَنْ يَجْعَلَ دَارَهُ رَهِينَةً لَدَيَّ، وَوَثِيقَةً فِي يَدَيَّ، فَفَعَلَ، ثُمَّ دَرَجْتُهُ بِالْمَعَامَلَاتِ إِلَى بَيْعِهَا حَتَّى حَصَلَتْ لِي بِجَدِّ صَاعِدٍ، وَبَخْتٍ مُسَاعِدٍ، وَقُوَّةٍ سَاعِدٍ، وَرُبِّ سَاعٍ لِقَاعِدٍ، وَأَنَا بِحَمْدِ اللَّهِ مَجْدُودٌ، وَفِي مِثْلِ هَذِهِ الْأَحْوَالِ مَحْمُودٌ"²⁹؛ فالتاجر هاهنا مزهوّ بنفسه، وبفعلته، ويرى احتياله هذا ضرباً من الذكاء والفتنة والسعي من أجل الحصول على الرزق.

ومن الاحتيال على صاحب الدار، واستحواذه الماكر على بيته بالحيلة، ينتقل التاجر إلى الحديث عن امرأة قد عرضت قلادةً ثمينةً للبيع؛ فاحتال عليها هي الأخرى أيضاً واشتراه منها بثمانٍ بخسٍ: "... فَإِذَا امْرَأَةٌ مَعَهَا عِقْدٌ لَالٌ، فِي جِلْدَةِ مَاءٍ وَرِقَّةٍ آلٍ، تَعْرِضُهُ لِلْبَيْعِ، فَأَخَذَتْهُ

مِنْهَا إِخْذَةً خَلْسٍ، وَأَشْتَرَيْتُهُ بِثَمَنِ بَخْسٍ، وَسَيَكُونُ لَهُ نَفْعٌ ظَاهِرٌ، وَرِيحٌ وَافِرٌ، يَعْوُنُ اللَّهُ تَعَالَى وَدَوْلَتِكَ، وَإِنَّمَا حَدَّثْتُكَ هَذَا الْحَدِيثَ لِتَعْلَمَ سَعَادَةَ جَدِّي فِي التِّجَارَةِ، وَالسَّعَادَةَ تُنْبِطُ الْمَاءَ مِنَ الْحِجَارَةِ...³⁰، فهو يُشير، بقوله هذا إلى مدى سعادته بامتداده لحرفة التجارة، التي تُدرُّ عليه الخير وفيراً، دون أدنى تعبٍ منه، ذلك أنَّه تاجرٌ شاطرٌ، يجيد الاحتيال والنَّصب من أجل تحقيق غايته، وهو يرى في ذلك شطارةً منه ودهاءً، وحُسن تصرفٍ.

لقد مثَّل الرجل الَّذي اصطحب أبا الفتح الإسكندري لتناول طعام المضيرة دور التاجر الانتهازي المحتال، الَّذي لم يتوان، لحظةً واحدةً، في الفخر بنفسه وإنجازاته التي حقَّقها في حياته بواسطة النَّصب والاحتيال، بدءاً من منزله الَّذي حصل عليه عنوةً من طرف أحد الأغنياء الفاسدين، حيث استطاع أن يحتال عليه ببضاعةٍ كاسدةٍ، وجعله يوقع وثيقةً استطاع، من خلالها، أن ينصب عليه ويأخذ ذلك المنزل الكبير الفخم بكلِّ سهولةٍ، دون تعبٍ ودون مقابلٍ حتَّى، وانتهاءً بالاحتيال على المرأة صاحبة العقد النَّفيس، الَّذي سلبه منها بثمانٍ بَخْسٍ، لا يعكس قيمته الحقيقية. ولا يتوقَّف الأمر عند هذا الاحتيال والابتزاز، فقط، من طرف هذا التاجر المحتال، بل جعل يفتخر بأساليبه تلك في الغش والاحتيال ويراهم ضرراً من الذكاء والحظ، الَّذي لم يُؤتَ لغيره.

ب- الحاجة/الاستغلال: تنعكس هذه الثنائية، على ذاك الموقف الَّذي جمع التاجر في المقامة المضيرية بغلامه، الَّذي كان عبداً له كما يبدو من أحداث المقامة، إذ قام باستدعائه، وعرضه على أبي الفتح الإسكندري، وأخبره من أين أتى به وعن أصله: "...تَرَى هَذَا الْغُلَامَ؟ إِنَّهُ رُومِيٌّ الْأَصْلُ، عِرَاقِيُّ النَّشْءِ. تَقَدَّمَ يَا غُلَامٌ وَاحْسِرْ عَنْ رَأْسِكَ، وَشَمِّرْ عَنْ سَاقِكَ، وَانْضُ عَنْ ذِرَاعِكَ، وَافْتَرَّ عَنْ أَسْنَانِكَ، وَأَقْبِلْ وَأَذْبِرْ، فَفَعَلَ الْغُلَامُ ذَلِكَ، وَقَالَ: التَّاجِرُ: بِاللَّهِ مَنْ اشْتَرَاهُ؟ اشْتَرَاهُ وَاللَّهِ أَبُو الْعَبَّاسِ، مِنَ النَّخَّاسِ"³¹.

قد تكون معاملة التاجر لذلك الغلام، في هذا المشهد، طريفةً نوعاً ما وتبعث على الضَّحْك، خصوصاً، عندما طلب إليه أن يتقدَّم، وأن يكشف عن رأسه وذراعيه، وأن يفتَرَّ عن أسنانه، وأن يُقبل ويُدبر أمام أبي الفتح الإسكندري، إلَّا أن هذا المنظر، ونحن نتخيَّله، لينمُّ عن ممارسةٍ لا إنسانيةٍ، وانتهاكاتٍ أخلاقيةٍ، ارتكبتها التاجر في حقِّ ذلك الغلام المسكين، الَّذي عومل وكأنَّه بضاعة تُعرض للبيع، وكأنَّ التاجر أراد أن يؤكِّد لأبي الفتح على جودة هذا

الغلام، حين جعل يُعائنه أمام مرأى منه، ويقلّبه، كما تُقلّب الأضحية عند شرائها من طرف الزّبون.

إنّ الممارسة الّتي اجتريها التّاجر في حقّ ذاك الغلام المسكين، لا تربطها أدنى صلة بمبادئ الدّين الإسلاميّ الحنيف؛ فقد حارب الإسلام نظام العبودية الّذي كان سائدًا في العصر الجاهليّ ونهى عنه، كما أنّه كرّم الإنسان وحثّ على حرّيته، ولم يفرّق بينه وبين إنسانٍ آخر إلا بمقدار ثقافته لله؛ فإذا بالعباسيّين يخالفون الشرع، ويحيدون عما سنّه الدّين الإسلاميّ، وما حرّمه من عبوديّة للإنسان، وانتهاكٍ لحرّيته. وحكاية التّاجر مع غلامه، في هذه المقامة، ما هي إلا انعكاسٌ لطبيعة الحياة الاجتماعيّة في ذاك العصر، الّتي كانت تعجّ بأسواق النّخّاسين؛ إذ كانوا يتاجرون بالبشر ويعرضونهم للبيع في ذلك شأنهم شأن السّلع في الأسواق، طمعًا في الكسب الوفير، والرّبح الكبير الّذي كانوا يجنونونه من وراء هذه التّجارة، غير مباليين بنفسيات أولئك الغلمان والجواري، الّذين دفعهم شبح الفقر والحاجة إلى الانصياع لرغبات أسيادهم، الّذين كانوا يقسون عليهم، ويعاملونهم باحتقارٍ وذلّ، ضارِبين إنسانيّتهم ومشاعرهم عرض الحائط، مخالفين بذلك تعاليم الدّين الإسلاميّ، الّذي دعا في مُجمله إلى الرّحمة والرّفق بالإنسان؛ فكيف لدولةٍ إسلاميّةٍ أن ترتكب مثل هذه التّجاوزات الّتي كانت في غنى عنها؟ وأين دور المصلحين ورجال الدّين في زجر الحكّام والسّاسة وأولي الأمر عن مثل هذه المخالفات الّتي نجمت عن التّرف والبذخ الكبير الّذي عرفتته الدّولة؟

يعلّق كاظم حطيط على موضوع الرّق والجواري هذه الفترة قائلا: "كان لفئة الرّقّيق والجواري أن تزاد كلّما استشرس الطّمع في التّرف والجاه، فتمتلئ القصور بالجواري، وتُنشر أسواق الرّقّيق، وذلك حسب ارتفاع ميزان الطّلب، ويبت هؤلاء في أبشع درجات الاستغلال خاضعين في ذلك لحكم الدّين الّذي لم يمنع الرّق بصورةٍ حاسمةٍ"³². وعليه، كانت تربط كثرة الطّلب على الجواري والرّقّيق في العصر العبّاسي علاقةً وطيدة بالتّرف الّذي كانت تحياه الدولة؛ فكلمًا ازداد التّرف، كثر الطّلب على تلك الفئة المُهمّشة من البشر، فتمّ استغلال أولئك الغلمان والجواري أفضع استغلالٍ، متستّرين برداء الدّين الّذي لم يزجرهم بشكل قاطعٍ عن تلك الممارسات.

لقد شكّلت ظاهرة العبودية والاسترقاق وصمة عارٍ يُندى لها الجبين في تاريخ الدولة العبّاسية، الّتي استغلّت إنسانية أولئك البشر على نحوٍ لم يسبق له مثيل في تاريخ الدولة الإسلاميّة، كما أشار إليه كاظم حطيط بقوله: "وتعرف العهود العبّاسيّة صنوفاً مثيرة في

استغلال الإنسان للإنسان واسترقاقه، ويصمُّ ذلك الحضارة العربية العباسية بوصمة لا تمُحى فتشوّه في توهجها العالمي والإنساني".³³

وبناء على القول السابق، فقد مثّلت المقامة المصيرية نموذجاً متفرداً عرض لنا البديع من خلاله الفوارق الطبّيقية بين أفراد المجتمع العباسي هذه الفترة، لاسيّما طبقة التجّار التي غرقت في الثراء والتّرف والتّعيم، وتجردت من إنسانيتها، وبلغت أرقى المراتب في الدّولة وأسمائها على حساب من دونها منزلة، وأقلّ منها شأنًا، فلم تتوان لحظة في استغلالهم وابتزازهم والتّحليل عليهم، غير مبالية بمشاعرهم أو أحاسيسهم، كما كان عليه حال التّاجر في هذه المقامة.

ج- المتعة/ الضّجر: نجد التّاجر في هذه المقامة مستمتعاً بسرد أدقّ تفاصيل حياته، دون مللٍ، أو كللٍ، إذ كان يصف بشكلٍ دقيقٍ، وحُبكةٍ مُتقنةٍ كلّ ما تَقَع عيناه عليه، حتّى زوجته الّتي من المفروض أن يكون متحفّظاً في الحديث عنها أمام رجال أجنب، كما ينصّ عليه الدّين، والعادات والعُرف والتّقاليد، لم تسلم من وصفه لها وإشادته بها، وكأّتها واحدة من إنجازاته الّتي يفخر بتحقيقها، فبينما هما سائران نحو بيت التّاجر، شرع التّاجر يحدثه عن زوجته وحذقها في طبخ المصيرة، ثمّ انتقل إلى الإشادة بأصلها ونسبها: "... فَجَعَلَ طُولَ الطَّرِيقِ يُثْنِي عَلَى زَوْجَتِهِ، وَيُقَدِّمُهَا بِمُهْجَتِهِ، وَيَصِفُ حَذَقَهَا فِي صَنْعَتِهَا، وَتَأَنُّقَهَا فِي طَبْخِهَا وَيَقُولُ: يَا مَوْلَايَ لَوْ رَأَيْتَهَا، وَالْخَرْقَةَ فِي وَسْطِهَا، وَهِيَ تَدُورُ فِي الدُّورِ، مِنَ التَّنُّورِ إِلَى الْقُدُورِ وَمِنَ الْقُدُورِ إِلَى التَّنُّورِ تَنْفُثُ بِفَمِهَا النَّارَ، وَتَدُقُّ بِيَدَيْهَا الْأَنْزَارَ، وَلَوْ رَأَيْتَ الدُّخَانَ وَقَدْ غَبَرَ فِي ذَلِكَ الْوَجْهِ الْجَمِيلِ، وَأَثَرَ فِي ذَلِكَ الْخَدِّ الصَّقِيلِ، لَرَأَيْتَ مَنْظَرًا تَحَارُ فِيهِ الْعَيُونُ: وَأَنَا أَعْشَقُهَا لِأَنَّهَا تَعْشُقُنِي، وَمِنْ سَعَادَةِ الْمَرْءِ أَنْ يُرْزَقَ الْمُسَاعَدَةَ مِنْ حَلِيلَتِهِ، وَأَنْ يَسْعَدَ بِطَاعِيَتِهِ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا كَانَتْ مِنْ طِينَتِهِ، وَهِيَ ابْنَةُ عَمِّي لَحَا، طِينَتُهَا طِينَتِي، وَمَدِينَتُهَا مَدِينَتِي، وَعُمُومَتُهَا عُمُومَتِي، وَأُرُومَتُهَا أُرُومَتِي، لَكِنَّهَا أَوْسَعُ مِنِّي خُلُقًا، وَأَحْسَنُ خُلُقًا وَصَدَّعَنِي بِصِفَاتِ زَوْجَتِهِ..."³⁴.

وبعد أن فرغ التّاجر من الإشادة بزوجته وإعراجه عن مدى حبّه لها وافتخاره بها، ينتقل كما ذكرت سابقاً إلى وصف منزله وأثاثه ومتاعه، وغلامه، إلى أن يأذن لغلامه بإحضار الطّعام لضيّفه، فتنفّس الإسكندريّ الصّعداء، لأنّه سيتناول تلك المصيرة الّتي تحمّل من أجلها تفاهة وإزعاج ذاك التّاجر المغرور المزهو بنفسه وممتلكاته، ينادي التّاجر غلامه قائلاً: "يا غلامُ الْخَوَانُ، فَقَدْ طَالَ الرَّمَانُ، وَالْقِصَاعُ، فَقَدْ طَالَ الْمِصَاعُ، وَالطَّعَامُ، فَقَدْ كَثُرَ الْكَلَامُ، فَأَتَى الْغُلَامُ

بِالْخُوانِ، وَقَلْبَهُ التَّاجِرُ عَلَى الْمَكَانِ، وَنَقَرَهُ بِالْبَنَانِ، وَعَجَمَهُ بِالْأَسْنَانِ، وَقَالَ: عَمَرَ اللَّهُ بَعْدَادَ فَمَا أَجُودَ مَتَاعَهَا، وَأَظْرَفَ صُنَاعَهَا، تَأَمَّلْ بِاللَّهِ هَذَا الْجِوَانُ، وَأَنْظُرْ إِلَى عَرْضِ مَتْنِهِ، وَخِفَّةِ وَزْنِهِ، وَصَلَابَةِ عُودِهِ، وَحُسْنِ شَكْلِهِ فَقُلْتُ: هَذَا الشَّكْلُ، فَمَتَى الْأَكْلُ؟³⁵. ويواصل التاجر بالطريقة ذاتها وصف ما تبقى من خبز وآلاته، وصفاته، وحنطة، ومصدر الحنطة، ثم الملح وصفاته، والخميرة ومفعولها، والسُّكَّرَجَاتُ؛ هذا قبل أن تصل المضيرة التي راح يحكي عن: "كَيْفَ اشْتَرَيْتُ لَحْمَهَا؟ وَفِي شَحْمِهَا؟ وَنُصِبْتُ قِدْرَهَا، وَأُجِجَتْ نَارُهَا، وَدُقَّتْ أَبْرَارُهَا، حَتَّى أُجِيدَ طَبْخُهَا وَعَقِدَ مَرْقُهَا؟ وَهَذَا خَطْبُ يَطْمُ، وَأَمْرٌ لَا يَتِمُّ"³⁶، وهنا يستشيط الإسكندرِي غضباً؛ فثارت ثائرته، ونفذ صبره، فانصرف مسرعاً بعد أن ضاق ذرعاً بتصرفات التاجر وأوصافه المملة قائلاً: "...كُلُّ أَنْتَ مِنْ هَذَا الْجِرَابِ، لَمْ يَكُنِ الْكَنِيفُ فِي الْجِسَابِ، وَخَرَجْتُ نَحْوَ الْبَابِ، وَأَسْرَعْتُ فِي الدَّهَابِ..."³⁷؛ فخرج يعدو هارباً وإذا بالتاجر يلحق به، ويناديه بأبي الفتح المضيرة؛ فاعتقد الصَّبَّيَانُ خارج منزل التاجر أَنَّ المضيرة هي لقب أبي الفتح؛ فأخذوا ينادونه بنداء التاجر؛ فأصبح شكل الإسكندرِي كشكل المجنون الذي يركض خلفه الصَّبَّيَانِ، ويسخرون من اسمه، فجُنَّ جنونه، وحمل حجرًا ليقذف به أحدهم، وإذا به يقذف شيخًا فأصابه في رأسه: "...وَجَعَلْتُ أَعْدُو وَهُوَ يَتَّبِعُنِي وَيَصِيحُ: يَا أَبَا الْفَتْحِ الْمَضِيرَةِ، وَظَنَّ الصَّبَّيَانُ أَنَّ الْمَضِيرَةَ لَقَبٌ لِي فَصَاحُوا صِيَاخَهُ، فَرَمَيْتُ أَحَدَهُمْ بِحَجَرٍ، مِنْ قُرْطِ الضَّجَرِ، فَلَقِيَ رَجُلٌ الْحَجَرَ بِعِمَامَتِهِ، فَغَاصَ فِي هَامَتِهِ"³⁸؛ فيؤخذُ صاحبنا بالأيدي والتَّعَالِ، ويُزَجَّ به إلى السَّجْنِ لمدّة عامين؛ فتطير من أكل المضيرة وأفسَمَ أن لا يقربها طيلة حياته: "فَأَخَذْتُ مِنَ النَّعَالِ بِمَا قَدَمَ وَحَدْتُ، وَمِنْ الصَّفْعِ بِمَا طَابَ وَخَبْتُ، وَحُسِرْتُ إِلَى الْحَبْسِ، فَأَقَمْتُ عَامَيْنِ فِي ذَلِكَ النَّحْسِ، فَتَذَرْتُ أَنْ لَا أَكُلَ مَضِيرَةً مَا عِشْتُ، فَهَلْ أَنَا فِي ذَا يَا آلَ هَمْدَانَ ظَالِمٌ؟"³⁹. وهكذا تكوّنت في نفس أبي الفتح كراهية من نوع خاصٍ لطعام المضيرة، فرؤيتها أصبحت تُذكِّره بتلك الحوادث التي عاشها ذاك اليوم. قال عيسى بن هشام: "فَقَبِلْنَا عُذْرَهُ، وَنَذَرْنَا نَذْرَهُ، وَقُلْنَا: قَدِيمًا جَنَبَتِ الْمَضِيرَةُ عَلَى الْأَحْرَارِ، وَقَدَّمَتِ الْأَزَادِلَ عَلَى الْأَخْيَارِ"⁴⁰. وهكذا، تنتهي هذه المقامة الطريفة المضحكة الرائعة.

وخلاصة القول، لقد كشفت لنا المقامة المضيرية بوضوح صورة المجتمع البغدادي زمن "البديع"؛ ونمط معيشته، من سكن ومحتوياته، وطرز بنائه وأثاثه، ومأكله ومشربه، وقد أجاد "البديع" في رسم ذلك كلّ، كما أنه قد ضمّن مقامته هاته نقدًا لاذعًا لطبقة الثَّجَّار الانتهازيين الاحتيايين في عصره، وأسلوب حياتهم، والثَّراء الفاحش الذي كانوا ينعمون فيه إلى جانب حُكَّام وسلّاطين عصرهم، وعليه أرى من وجهة نظر خاصّة أن غاية "الهمداني" من

خلال كتابة مقامته المصيرية تبقى متعدّدة المسالك؛ إذ لم تكن ترمي إلى وصف نمط حياة أغنياء العبّاسيين آنذاك، بقدر ما كانت تتمحور حول فضح ندالة وسفالة أولئك التجّار؛ الذين استغلّوا سذاجة النّاس وغفلتهم من أجل تحقيق مصالحهم؛ وزيادة غناهم وثرانهم على حساب غيرهم من الضّعفاء، فعاثوا في أرجاء دولتهم فسادا ما بعده فساد.

5. خاتمة:

تمكّنت في نهاية هذه الورقة البحثية من رصد النّتائج الآتية:

✓ يقصد بالنّسق الاجتماعي مجموع العلاقات الاجتماعية التي تربط بين أشخاصٍ فاعلين في بيئةٍ واحدةٍ ضمن نظامٍ اجتماعيٍّ واحدٍ.

✓ يرتكزُ "البديع"، في بناء مقاماته، على النّسق الاجتماعيّ، كونها جاءت مصوِّرة للواقع الاجتماعيّ المعيش زمن البديع بامتياز.

✓ تتعدّد صور وأشكال الخطاب السّردّي والقيم الجماليّة لمقامة "البديع" المصيرية إذ أخفّت دلالات مضمرة وخفيّة، في تضاعيف المقامة.

✓ نجح "البديع" في تضمين مقامته المصيرية ثنائيات ضديّة عكست طبيعة الحياة في عصره نحو: ثنائية الفقر/الغنى، ثنائية السّذاجة/الاحتيال، ثنائية المتعة/الضّجر التي أضمّرها البديع في ثنايا مقامته.

✓ المقامة المصيرية مرآة صافية عاكسة لندالة وسفالة وجشع أولئك التجّار الذين استغلّوا سذاجة النّاس وغفلتهم من أجل تحقيق مصالحهم، وزيادة غناهم وثرانهم على حساب غيرهم من الضّعفاء، ضاربين بمشاعرهم وأحاسيسهم عرض الحائط.

✓ نجاح "الهمذاني" في توجيه نقدٍ لاذعٍ لطبقة التّجّار الانتهازيين الاحتاليين في عصره، وأسلوب حياتهم والسّخرية منهم بأسلوب طريفٍ وروح دعابة، تبعث على الضّحك، على لسان أبي الفتح الإسكندري.

مراجع البحث وإحالاته:

- 1- جمال الدّين أبي الفضل محمد بن مكرم بن منظور الأنصاري الإفريقي المصري، لسان العرب، دار صادر، بيروت، د ط، د ت، ج 10، ص 352 – 353.

- 2- مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، الإدارة العامة للمجمعات وإحياء التراث، جمهورية مصر العربية، ط 4، 1452هـ/ 2004م، ص 218.
- 3- أحمد رضا، معجم متن اللغة موسوعة لغوية، دار مكتبة الحياة، بيروت، د ط، 1960م، ج 5، ص 451.
- 4- عبد الله الغدامي، النقد الثقافي قراءات في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط 3، 2005م، ص 76.
- 5- المرجع نفسه، ص 77.
- 6- يوسف محمود عليمات، النقد النّسقي تمثيلات النسق في الشعر الجاهلي، الأهلية للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، ط 1، 2015م، ص 22.
- 7- إيديت كريزويل، عصر البنيوية، تر: جابر عصفور، مكتبة نرجس، الكويت، ط 1، 1993م، ص 411.
- 8- المرجع نفسه، ص 411.
- 9- عبد الباسط عبد المعطي، اتجاهات نظرية في علم الاجتماع، الكويت، د ط، 1998م، ص 104.
- 10- عبد الله الغدامي، النّقد الثّقافي، قراءات في الأنساق الثقافية العربية ص 79.
- 11- المرجع السابق، ص 79.
- 12- ينظر عبد الله الغدامي، النقد الثقافي قراءات في الأنساق الثقافية العربية ص 78
- *- المضيرة لحم يطبخ بلبن المضير أي الحامض أو بالحليب مع إضافة الإبرار، الّذي يضفي لذةً على مرقها، ينظر: بديع الزّمان الهمداني، المقامات، حاشية ص 122.
- 13- بديع الزمان الهمداني، المقامات، ص 122-123.
- 14- المصدر نفسه، ص 123.
- 15- المصدر نفسه، ص 125.
- 16- المصدر نفسه، ص 126.
- 17- المصدر نفسه، ص 127.
- 18- المصدر نفسه، ص 130.
- 19- المصدر نفسه، ص 131.
- 20- المصدر نفسه، ص 132.
- 21- المصدر نفسه، ص 132-133.
- 22- المصدر نفسه، ص 134.
- 23- كاظم حطيط، دراسات في الأدب العربي، ص 15.
- 24- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، ص 60. - 224 -

- 25- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، ص 67.
- 26- أحمد أمين، ظهر الإسلام، ص 279.
- 27- سيف محمد سعيد المحروقي، نماذج إنسانية في السرد العربي القديم، ص 192.
- 28- المصدر نفسه، ص 127.
- 29- المصدر نفسه، ص 128.
- 30- المصدر نفسه، ص 129-130.
- 31- بديع الزمان الهمداني، المقامات، ص 131.
- 32- كاظم حطيط، دراسات الأدب العربي، ص 16-17.
- 33- المرجع نفسه، ص 17.
- 34- المصدر نفسه، ص 124-125.
- 35- المصدر نفسه، ص 134.
- *-الشكرجات: الصحاف التي توضع فيها ألوان الطعام، ينظر: بديع الزمان الهمداني، المقامات، حاشية، ص 134.
- 36- بديع الزمان الهمداني، المقامات، ص 135.
- 37- المصدر نفسه، ص 136.
- 38- المصدر نفسه، ص 136.
- 39- المصدر نفسه، ص 135.
- 40- المصدر نفسه، ص 135.

7. قائمة مراجع البحث وإحالاته:

الكتب:

1. ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، د ط، د ت.
2. أحمد أمين، ظهر الإسلام. أحمد أمين، ظهر الإسلام، الجزء الأول، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، د ط، 2012.
3. أحمد رضا، معجم متن اللغة موسوعة لغوية، دار مكتبة الحياة، بيروت، د ط، 1960م.

4. إيديت كريزويل، عصر البنيوية، تر: جابر عصفور، مكتبة نرجس، الكويت، ط 1، 1993م.
5. بديع الزمان الهمداني، رسائل أبي الفضل، تح: إبراهيم أفندي الأحذب، مطبعة هندية، مصر، القاهرة، ط3، 1315هـ/ 1898م.
6. سيف محمد سعيد المحروقي، نماذج إنسانية في السرد العربي القديم، دار الكتب الوطنية، أبو ظبي، ط1، 2010.
7. شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الثاني، دار المعارف، ط12، دت.
8. عبد الباسط عبد المعطي، اتجاهات نظرية في علم الاجتماع، الكويت، د ط، 1998م.
9. عبد الله الغدامي، النقد الثقافي قراءات في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط 3، 2005م.
10. كاظم حطيط، دراسات في الأدب العربي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1977م.
11. مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، الإدارة العامة للمجموعات وإحياء التراث، جمهورية مصر العربية، ط 4، 1452هـ/ 2004م.
12. يوسف محمود عليمات، النقد النّسقي تمثيلات النسق في الشعر الجاهلي، الأهلية للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، ط 1، 2015م.